إطار المذهب الإنساني

بقلم جوليان هكسلي
ترجمة رمسيس عوض

وبهذا (*) نجيء الى الوجه الثاني من النشاط الانساني الاعلى والرئيسي – وهو العلم . ويجب ان نكون على نور من اساءة استعمال كلمات مثل « العلم » ، و « العلمي » وخاصة اذا أساء استعمالها أولئك الذين يريدون أن يقبضوا الثمن على أساس هيبة العلم في الدفاع عن ارائهم الخاصة وخدمة مصالحهم الذاتية . وهكذا كانت الدراسة اللاهوتية في يوم من الايام تزعم لنفسها في خيلاء لقب « ملكة العلوم »، وهي لا تزال تزعم بطريقة شاكية بعض الشيء انها علم – وهو زعم تستطيع تبريره فقط باتباعها الاسلوب العلمي . وأكبر مثل حديث واضح على هذا هو مثل الماركسيين . فقد أكد ماركس نفسه أنه قد اكتشف القوانين العلمية الصارمة التي تحكم في حتمية تطور المجتمع . ولا زال الكثير من الناس يقبل الشيوعية كمذهب سياسي لانه قيل لهم انها « علمية » . وليست الماركسية في واقع الامر علما أكثر من كون اللاهوت علما – لانها اساسا نوع من اللاهوت ، بمعنى انها تتكون من جملة مبادىء تنهض صحتها على ضمان السلطة المبنية على المسلمات لها ، بدلا من وضعها موضع الاختبار على اساس الحقائق كما تعتمد صحتها على منطق مدرسي ضيق ومزهو بنفسه بدلا من التواضع الصبور للبحث الحر .

والعلم ، كالفن ، اصطلاح غير مقيد وعام ، يشمل مدى واسعا من اوجه النشاط الانساني ونتاجها . ورغم أن لبابه راسخ ووطيد وواضح الا أنه لا مناص من ان تكون اطرافه كثيرة الوبر وغير جامدة، ويتدرج العلم بشكل غير محسوس الى لا علم ، كما يتدرج الفن الى لا فن. وربما كان أحسن تصوير للعلم على انه عملية – عملية اكتشاف وانشاء وتنظيم للمعرفة . ويجب حتى يحقق العلم هذا بطريقة فعالة ان يعتمد على الاسلوب العلمي كما يؤكد الدكتور برونوسكي في الفصل الذي كتبه . (1)

واذا نظرنا الى العلم على المدى الطويل فسنرى أنه استمرار عن طريق أساليب جديدة ، للاتجاه نحو وعي اكمل واحسن تنظيما، يتخلل سائر تطور الحيوان من قبل انبلاج فجر أي شيء يمكن تسميته بالعقل او الذاكرة ، حتى نصل الى الثدييات والانسان . وقد تبنى الانتخاب الطبيعي هذا الاتجاه نظرا لفائدته من الناحية البيولوجية. ويمكن الوعي الاكمل والاحسن تنظيما اصحابه من النجاح في معالجة التغيرات والفرص في حياتهم وبيئتهم بطريقة افضل واكمل . وهو بوجه خاص مقيد للوقت ، ويمكنهم من الاستفادة من تجارب الماضي للاسترشاد بها في اعمال المستقبل .

وللعلم وظيفتان نفسيتان – اجتماعيتان مترابطتان ومتشابكتان. وهو يزيد الفهم والسيطرة معا . فهو يوسع فهم الانسان للعالم : عالم الطبيعة الخارجية الغريب ، وعالم طبيعته الداخلية الخاصة الذي يتضمن نفس القدر من الغرابة . كما ان العلم يزيد من قدرته على السيطرة على الجوانب والعمليات المتنوعة لذلك العالم، وتوجيهها . ونتيجة ذلك ان كل شيء في التطور النفسي – الاجتماعي يمكن حقا ان يسمى ترقيا او تقدما او تحسنا يرجع مباشرة او غير مباشرة الى الزيادة او التحسن في المعرفة (1) .

والعلم ، كما يؤكد الدكتور برونسكي ، ليس مجرد اكتشاف لحقيقة سابقة الوجود . والاهم من هذا ايضا انه خلق لشيء جديد. فالعلم خلاق مثل الفن تماما . وليست القوانين العلمية شيئا موجودا منذ الازل وجودا مستقلا بذاته ، او في عقل الله ، منتظرا ان يقوم الانسان باكتشافه . فالقوانين العلمية لم تكن موجودة قبل أن يقوم رجال العلم بصياغتها . وينطبق نفس هذا القول على الذرة او الطاقة الكهربائية الكامنة او التطور .

والقوانين والافكار العلمية على حد سواء عبارة عن خلق منظم يقوم به العقل البشري ، تنظم بوساطته المواد الخام غير المنظمة للظواهر الطبيعية التي تظهر امام التجربة الفجة ، وتأتلف في صور منظمة يمكن التحكم فيها . والفكرة العلمية عبارة عن تكامل للتجربة فعال من الناحية الفكرية ، مثلما تكون اللوحة تكاملا فعالا من الناحية الجمالية .

وهكذا فالعلم لا يعني باكتشاف الحقائق فقط ، بل هو أشد عناية باقامة العلاقات بين الظواهر . وقد ازداد الفهم العلمي عن طريق ربط صفتي الحرارة والبرودة المفروض تعارضهما داخل الفكرة العامة لمقياس الحرارة ، وعن طريق ربط عدد من اوجه النشاط الطبيعية التي لا يبدو عليها الترابط بعضها ببعض خلال مبدأ عدم فناء الطاقة ، وعن طريق استخدام فكرة عملية التحول الغذائي (الميتابوليزم) كي تؤدي نفس الخدمة من اجل عدد من اوجه النشاط البيولوجية . والنظرية العلمية الجيدة تقوم بربط حشد من الظواهر المنفصلة والافكار المصاحبة لها في نموذج موحد من الترابط . فنظرية التطور الحديثة مثلا قد نسجت نسيجا شاملا من العلاقات بين ظواهر الكينتولوجيا – علم دراسة الخلايا – وعلم الوراثة والتلائم ، والبالينتولوجيا – علم دراسة الحفائر والانواع المنقرضة – ، والتناسل ، وعلم الاجنة، والسلوك والانتخاب ، والسيستيماتيقا – علم التقسيم – والكيمياء الحية .

والعلم معنى ايضا يفهم نظم الترابط الموجودة في الطبيعة . ويعني هذا دراسة التنظيم على كل مستوى – مستوى الذرات ، والجزيئات ، والكائنات الحية الافراد ، والمجتمعات ، والاوساط الديكلوجية (التي تدرس الكائنات الحية وطرق حياتها وعلاقتها بالبيئة) . ولان الحال كذلك ، فان العلم لا يستطيع ان يكون مجرد مسألة تحليل ، كما هو المفروض خطأ في اغلب الاحيان . بل يجب ان يبدأ من التنظيمات الموجودة على اي مستوى . وبعد ان ينتهي العلم من دراستها من الناحية الوصفية ، وناحية المقارنة ومن الناحية الوظيفية ، يمكنه حينئذ ان يحاول تحليلها الى عناصر على مستوى اكثر انخفاضا ، وان يحاول اخيرا ان يؤلف بينهما ، ويعيد تجميع اجزائها في تركيب نظري جديد . وليس هناك فائدة من محاولة البدء من

(*) راجع العددين الماضيين من «الاداب» .

(1) انظر ايضا كتاب « التقليد الفكري الغربي »، طبعة لندن ، فنشنسونز ، ونيويورك هاربر ١٩٦٠، وكتاب غيلسبي «حافة الموضوعية» طبعة برنستون ١٩٦٠ .

(١) زيادة المعرفة بطبيعة الحال مسؤولة كذلك عن الكثير من المعوقات التي تعترض طريق التقدم ، بل مسؤولة حتى عن التأخر (وهذه حقيقة يرمز لها جزئيا في اسطورة سقوط الانسان) ولكن هذا لا يسيء بحال من الاحوال الى سلامة الحقيقة التي تتمثل ، كون المعرفة أساسا ضروريا للتقدم .

مستوى منخفض . فلم يكن احد ليستطيع ان يبني مباديء علم الوراثة الحديث المنتصرة على مجرد المعرفة الكيماوية ـ الحية . وكان على نظرية الوراثة ان تبدأ بالظواهر على المستوى البيولوجي مثل انقسام الخلية غير الماشر . وقانون الوراثة عند مندل ، مع التسليم بحقائق التنظيم البيولوجي . وفيما بعد بكثير فقط ، اصبح من الممكن تحليل وفهم ظواهر الوراثة بأسلوب الكيمياء ـ الحية ، كما نستطيع الان ان نشرع في التحليل والفهم . ويرجع الفضل في ذلك الى نظرية واطسون ، وكريك اللامعة التي تتلخص في التكرر الذاتي لانواع معينة من جزيئات الحامض النووي .

ويجب ان نحذر من مبدأ رد الاشياء الى سبب واحد لا غير . ويكاد الا يكون صحيحا على الاطلاق الزعم بان شيئاليس الا شيئا اخر . فليس معنى انحدارنا من النوييات الرئيسية الشبيهة بالانسان ، اننا لا شيء غير قردة متطورة . وليس معنى اننا مكونون من المادة اننا لا نتسم بشيء غيرصفات المادة . والتنظيم على الدوام اكبر من مجرد حصيلة العناصر المكونة له . ويجب دراسته ككل وحدوي ، كما انه يجب ان يحلل الى اجزائه المكونة له .

والعلم نظام يصحح ويوسع نفسه بنفسه ، ويهدف الى توحيد التجربة . وهو يخلق رقعا من المعرفة المنظمة في بقاع الجهل الانساني الهائلة الاتساع . وتنمو رقعة المعرفة ، وقد تندمج لتكوين نماذج اكثر شمولا . ويسير الاتجاه بوضوح نحو تنظيم واحد من المفهوم الفكري في نهاية الامر ، مشتملا على كل نواحي التجربة في نسيج علاقاته ، موحدا سائر رقع المعرفة المنفصلة في جسم واحد من الفهم المنظم على وئام . ولكن هناك في نفس الوقت فجوات عظيمة من الجهل لا تزال تفصل بعض النظم الجزئية التي لا يزال بعضها جزرا منعزلة منفصلة من الناحية العملية عن جيرانها . بينما ان بعض مناطق التجربة لا تزال جامدة لا تلين ، او تخضع للاسلوب العلمي ، وتستمر في البقاء خارج نظامه .

وحاجتنا المباشرة هي دراسةالقيم دراسة علمية. ويؤكد الفلاسفة واهل اللاهوت احيانا ان هذا مستحيل ، زاعمين ان القيم تقع خارج نطاق العلم . ولا يستطيع المؤمن بالمذهب الانساني ان يقبل هذا . فالقيم ظواهر قبل كل شيء . ولهذا فهي تخضع للبحث والاستقصاء بواسطة الطرق العلمية . وهي ظواهر تظهر فقط على المستوى النفسي . ويجب على العلم ان يبدأ بمعالجتها على هذا المستوى النفس وعملية التحول الغذائي ؟ وما هي الوظائف التي تؤديها في في اي ظروف نفسية تظهر القيم الى الوجود ؟ وما هي المواد الخام التي تقيم صرحها عن طريق نشاط الانسان القائم على العلاقة بين النفس وعملية التحول الغزائي ؟ وما هي الوظائف التي تؤديها في التطور النفسي ـ الاجتماعي ؟ وكيف تتغير وتتطور ؟ .وتماما كما تعين على العلم ان يستحدث طرقا خاصة لمعالجة الظواهر المردودة الى اكثر من سبب معالجة وافية وسليمة ، وخاصة عندما لا تكون هذه الظواهر في متناول يد التجربة ، فعليه كذلك يمضي الوقت ان يستحدث وسائل خاصة لمعالجة الظواهر التي تحمل اجزاؤها المكونة لها طابعا ذاتيا قويا واضحا معالجة فعالة .

ودراسة القيم جزء من المشكلة الرئيسية والهامة حقا التي تجابه العلم الان ـ مشكلة ربط العقل والنشاط الذهني ببقية ظواهر الكون في صورة علمية واحدة . وامامنا هنا في هذا المجال عمل شاق كثير . ولكننا قد اصبنا هنا ايضا ـ كما يبين رسل برين في الفصل الذي كتبه في هذا الكتاب ـ قدرا كبيرا من النجاح حققنا جانبا منه عن طريق الدراسة التطورية الارتقائية ، وجانبا اخر عن طريق الدراسة التطورية للسلوك الانساني ، كما حققناه جزئيا عن طريق الهجوم المشترك للفسيولوجيا والسيكولوجيا على النشاط الذهني الانساني وتناولهما له بالمعالجة .

بل ان الاتجاه الذي لا سبيل الى مقاومته نحو خلق صورة واحدة علمية وشاملة لعالم التجربة الانسانية يظهر بوضوح اكبر اذا نظرنا الى العلم من الناحية التاريخية . ومنذ فجر الثورة العلمية التي قامت منذ نحو ثلثماية وخمسين سنة خلت، والعلم يغزو في ثباتوثقة ميادين جديدة . بدأ الغزو قبل كل شيء بالميكانيكا ، والفلك ، والطبيعة ، ثم الكيمياء والتاريخ الطبيعي . ثم جاء علم الجيولوجيا والفسيولوجيا وعلم الاجنة ، ومن بعدها جاءت البيولوجية التجريبية والتطورية . ثم جاء دور الانولوجيا (علم اجناس السلالات البشرية) ، ثم علم النفس ومن بعده علم الاجتماع . وبعدئذ سار العلم قدما الى الامام ليضع اقدامه على ارض جديدة مثل الاقتصاد وعلم الاثار والانتروبولوجيا الاجتماعية . وانشأ علاقات بينالانظمة المنفصلة المختلفة عن طريق اقامة جسر يربط العلوم مثل الكيمياء ـ الحية ، وعلم النفس ـ الاجتماعي وعلم الايمينيتيقا (العلم الذي يدرس تكوين الكائنات العضوية كنتاج جديد) وعلم الطبيعة الفلكية . ونحن نشاهد الان غزو العلم لميدان الظواهر النفسية ـ الاجتماعية .

والميدان الوحيد الذي لا يزال خارج نطاق النظام العلمي هو ميدان ما يسمى بالظواهر وراء العادية مثل قراءة الفكر على مبعدة (التلباثي) ، والظواهر التي تتجاوز الحواس ولا تخضع لمنطقة العقل . واذا حان الوقت لخضوع هذه الظواهر لنطاق العلم ، فانه من المفروض ان يصبح اجراء بعض التغيرات الجذرية للغاية في اطاره الفكري امرا ضروريا .

وفي نفس الوقت على كل حال ، فقد توصل العلم الى وحدة جديدة وحقيقية جدا كما توصل الى متانة التنظيم ، وهو يعطينا صورة من المصير البشري والامكانيات الانسانية القائمة على العلم . ولاول مرة في التاريخ ، يستطيع العلم ان يصبح حليف الدين بدلا من ان يكون منافسه او عدوه ، وذلك لانه يستطيع ان يوفر لاهوتا (علميا)، في اطار من العقيدة منظم تنظيما علميا ، لاي دين جديد ينبثق من الفوضى الايديولوجية الراهنة . وهذا حتمي ، لان اللاهوت بهذا المعنى الواسع عبارة عن بيان عن العقائد وعن تبريرها من الناحية الفكرية والعقلية ، وهو على منهج الدين العام وطبيعته كما انه يحدد الكثير من ملامحه التفصيلية . وهكذا نجد ان النظام اللاهوتي بالنسبة للدين بمثابة اطار الفروض والنظريات بالنسبة للعلم .

وكل الاديان المؤمنة باله مبنية على افتراض وجود الله ، (اوعلى الافتراض الغيبي اذا استعملنا اصطلاح رالف تيريز الاكثر شمولا) ـ اي الاعتقاد بوجود كائنات فوق الطبيعة ذات طبيعة شخصية او فوق الشخصية ولها قدرة على التاثير في الاحداث الطبيعية ، بما فيها الاحداث التي تجري في العقول البشرية . وهذه نظرية ثنائية لانها تتضمن وجود شقاق اساسي وجوهري بين مناطق الوجود الطبيعية وما فوق الطبيعية .

وجميع مباديء اللاهوت الاولى تؤمن بتعدد الالهة . واللاهوت المسيحي يسمي نفسه توحيديا ، ولكنه يسمح لنفسه بتعدد الالهة الجزئي المتمثل في عقيدة التثليث ، في حين ان المركز المنسوب الى العذراء والملائكة والقديسين في المذهب الكاثوليكي ، والى درجة اقل في الطوائف الاخرى ، يطلق العنان لتعدد الغيبيات . واللاهوت المسيحي ينهض على الوحي ، وعلى الاعتقاد بحقيقة احداث ما فوق الطبيعة من الناحية التاريخية مثل التجسد ، وقيامة المسيح كابن الله ، وهو ايضا يؤمن بحقيقة المعجزات .

وينجم عن النظام اللاهوتي الذي يتضمن مثل هذه المعتقدات عدد من النتائج التي يجد دعاة المذهب الانساني انهاغير مرغوب فيها . ويفضي الايمان بمخلوقات فوق الطبيعة ، قادرة على التاثير في المصير الانساني الى الابتهال الذليل الخانع اكثر من الصلاة الطامحة الامله ، والى سائر انواع العادات والشعائر التي يقصد بها كسب الرضا الالهي ، من استعمال البخور حتى توريث الهبات النفسية . ومن تعذيب البدن حتى تقديم الضحايا بدافع التوبة . والايمان بحياة أخرى فوق الطبيعة يؤدي الى التركيز على الحصول على الخلاص في العالم الاخر ، كمايؤدي الى الافتقار الى الاهتمام بهذا

العالم وتحسنه الممكن . وقد افضى الايمان بسقوط الانسان وبضرورة الخلاص عن طريق مخلص مقدس تجسد ، الى المذهب القاسي (غير الصحيح) المتمثل في وراثة الخطيئة الاولى ، وهلاك غير المؤمنين ، الى جانب الاعتقاد بفحش الجنس النسائي وذنبهن وحقارة شانهن الكامنة فيهن . والايمان بقيمة العقائد والعادات المسيحية الاصيلة كالسبيل الوحيد او الرئيسي للوصول الى الخلاص يقودنا الى رفض الافكار الاخرى فيما يتعلق ما يشكل (الخلاص) ويوفره ، والوسائل الاخرى لتجاوز حدود الذات ، كما يقودنا الى التقليل من شانها . والايمان بان الكتاب المقدس هو كلمة الله الموحاة ، وان الكنيسة وممثليها هم المصدر الاوحد للعقيدة الصحيحة ، يفضي الى التعصب الفكري الذي يؤسف له ، والى رفض ، او التحقير من شان المعرفة العلمانية والاسلوب العلمي .

والايمان بحاكم فوق الطبيعة ، يتصف بالحكمة المطلقة والقدرة على اصدار المراسيم الاخلاقية المطلقة ، الى جانب الجهل بالعمليات التي تجري في اللاشعور التي كشف عنها النقاب علم النفس الحديث بسمحان لديكتاتوري المستقبل ، وغلاة الاخلاقيين المتعصبين ، والاخرين من العطشى الى القوة والسلطان بالاعتقاد بان عواطفهم الذاتية التي ينبع التاكد منها من داخل انفسهم هي حقا صوت اله موضوعي وخارج عن ذواتهم ، كما يسمحان لهم بالزعم بان الارشاد الالهي يقود خطاهم ويباركها كستار مناسب يخفون وراءه طموحهم وممكنهم دون ان يؤرقهم ضميرهم من اسقاط خطيئتهم ، وهوان شانهم الفاضب على اعدائهم ، وان يحولوا مجرى قسوتهم وساديتهم المكبوتة حتى يفيض على ضحاياهم . لكم كان من سوء طالع الانسانية ان الله قد قال كما ورد في الكتاب المقدس « الانتقام لي » .

والاعتقاد بفاعلية الشعائر والطقوس الدينية واثرها في الحصول على الخلاص ، او الانواع الاخرى من التقدم الديني نتيجة مميتة على الحياة الدينية والاخلاقية . والايمان بما فوق الطبيعة وبالمعجزات والعناصر السحرية التي تصاحبها يؤدي دائما الى الخزعبلات البشعة كما يؤدي في العادة الى استغلالها من الناحية المالية . ولنفكر مصداقا لهذا في مبدأ عبادة المخلفات الاثرية الدينية ، والنبذ العام لاية معالجة علمية لهذا الموضوع كما يشهد على ذلك اذاعة معتقدات مثل استقبال مريم العذراء في السماء على هيئة جسدية ، واعلان معجزة سنت فاتيما ، او الحج الذي يدر ربحا طائلا الى اماكن الشفاء عن طريق المعجزات مثل لورد .

ومن الممكن ان تؤدي مثل هذه المعتقدات المبنية على الايمان الالهي في صورها المختلفة الى انحطاط مادي للدين ، سخيف احيانا وخطير احيانا اخرى ، وفظيع احيانا ثالثة كما يتضح ذلك من عجلات الصلاة في البوذية في بلاد التيبت ، وفضيحة صكوك الغفران التي تسببت في بدء حركة الاصلاح ، او عادة تقديم الذبائح البشرية التي كان يمارسها شعب الازتيك Aztecs ، واهل قرطاجة .

واهم من كل شيء ان الايمان بالله قادر على كل شيء ، عليم بكل شيء ، تسع رحمته كل شيء يفضي الى الحيرة المخيبة للامل التي تصيب لب تناولنا للحقيقة ومعالجتنا لها . وهو في رأي كثير من الناس الذين يستعملون عقلهم لا يتمشى مع معرفتنا للطبيعة والتاريخ وحقائق الشر والشقاء الانساني . وحتى حين تخفف فكرة اله شخصي ، وتلطف وتتحول الى نوع من المبدأ المجرد ، او المطلق المفروض وجوده وراء الظواهر ، وحتى حين يستبعد الله عن اية امكانية للتدخل الفعال في الاحداث الطبيعية او الانسانية ـ كما يحدث في بعض الصور العصرية للاهوت المسيحي ـ فان الحيرة باقية لا تزول . فان مثل هذا الاله البكويكي (نسبة لشخصية ديكنز المعروفة المضحكة : مستر بكويك) لا يثير اهتمام العقل البشري والروح الانسانية . وهما يرفضان ان ينخدعا بالتاكيدات الخاصة بعدم قدرتنا الكامنة على فهمه . وتاكيدات رجل اللاهوت بصدد عدم قدرة الانسان على فهم الله لا ترضي الانسان في عالمه الحديث اكثر مما يرضي قول همتي دمتي : « عدم القدرة على النفاذ والاختراق . هذا ما اقوله » شخصية اليس في ارض العجائب .

وباختصار فان اي ايمان بوجود خالقين ، وحكام ، او مؤثرين فوق الطبيعة على المجريات الطبيعية او الانسانية ، يسبب صدعا في الكون لا يلتئم ، ويمنعنا من فهم وحدته الحقيقية . ويقيم اي ايمان بالمطلقات ، سواء كانت الصحة المطلقة للاوامر والنواهي الاخلاقية ، او لسلطة التنزيل او التعيين الداخلي او الوحي الالهي ، حاجزا فظيعا يعترض طريق التقدم ، وامكانية التحسن اخلاقيا او عقليا او دينيا . والجمع الذي غالبا ما يحدث اكثر مما ينبغي بين هذين الامرين يشكل عائقا خطيرا يعطل التقدم البشري كما انه يمنع عن طريق احاطة مشاكل الوجود الاساسية بالظلمة من استجلاء رؤية كاملة وشاملة للمصير البشري .

ولا يعدو ان يكون كل هذا تقريرا لنتائج الحقيقة التي تتمثل في ان كافة الاديان المؤمنة باله بما تتضمنه من اساس لا مفر منه يقوم على التنزيل الالهي واللاهوت المتزمت المتشدد لا تتمشى اليوم مع التقدم البشري ، وتقدم المعرفة الانسانية فحسب بل هي عوائق تعترض ظهور انواع جديدة من الديانات التي يمكن ان تتمشى مع معارفنا وان تحسن تقدمنا في المستقبل .

وعلى الرغم من ان النقد الهدام الموجه ضد النظم الدينية الراسخة مثل هجوم المذهب العقلي العنيف على المسيحية الاصيلة عند مطلع القرن التاسع عشر ، قد يكون ضروريا في فترات معينة ، الا ان زمن النشاط السلبي قد ولى وادبر الان . ولم يكن عبثا ان جوته قد جعل الشيطان يقول عن نفسه انه « الروح التي تنكر القيم الايجابية دائما . »

وليس ما يحتاج اليه العالم الان مجرد انكار عقلي للقديم بل تاكيدا دينيا لشيء جديد . وعلى كل حال فالاثبات ، على الاقل اثبات اي شيء له قيمة باقية ، اكثر عمرا من النفي . وهو اكثر عسرا ، كما جرب العالم على نطاق ضخم ، لنفس السبب الذي من اجله يكون التدمير اسهل من الانشاء ، وتحطيم كاتدرائية او مدينة او تمثال اسهل من خلق اي من هذه الاشياء .

والانشاء يحتاج لتنفيذه الى نوع من الخطة الايجابية للعمل والجهد التعاوني . ويتطلب هذا الذكاء والخيال وحسن النية وفوق كل شيء الرؤية المجلوة .

واحد الامور الرئيسية التي يحتاج اليها العالم في الوقت الحاضر هو نظام ديني واحد جديد ليحل محل تعدد النظم الدينية المتضاربة والمتعارضة التي تتنازع الان من اجل السيطرة على روح الانسان . وقد بدات نظرتنا الجديدة للكون ، ولدور الانسان فيه في توضيح الخطوط التي سيقام هذا النظام بمقتضاها .

وسائر الاديان ، كما سبق ان اوضحت ، هي اعضاء نفسية ـ اجتماعية للانسان المتطور . ووظيفتها هي مساعدته في حل مشكلات مصيره . والاديان نفسها تتطور . ولكنها تتضمن دائما الشعور بالسر المقدس الذي يكابده الانسان عندما يجابه ما يطلق عليه أوتو شعور الانسان بالدين والله والقداسة : بالسر العظيم ، وبالاحساس بالصواب والخطأ ، وبالشعور بالذنب او العار او الخطيئة . وهي تعني دائما بطريقة او اخرى بالعلاقة بين الفرد والمجتمع ، وبامكانية فراره من سجنه المباشر في المكان والزمان وحدود الذات . وذلك عن طريق اقامة علاقة بين نفسه وبين اطار اوسع منه ويتحد او يتصل بحقيقة اكبر منه .

والاديان تشمل دائما ما يجوز تسميته بمعنى واسع بالايدولوجية ، وبالنظام الاخلاقي ، وبالطقوس ـ وهي جميعا تنضوي تحت اطار فكري من المعتقدات والاساطير والمباديء اللاهوتية ، واطار اخلاقي لقوانين واوامر ونواهي اخلاقية ، واطار معبر عن الافعال تعرب عن العاطفة الدينية او يزيدها .

وكما اوضحت باستفاضة اكبر في كتابي « دين بلا ثورة » فان المواد الخام التي تتكون منها الاديان تشتمل على التجارب الدينية

الفعلية سواء كانت علوية او قدسية ، ومتصوفة او متجاوزة لحدود الحس . ولكن الصورة التي تتخذها هذه المواد الخام بوجه خاص تنجم اساسا من اطار عقائدها الايدولوجي . وقد سقت امثلة متنوعة تدل على ان معتقدات الدين تحدد اخلاقه وتعبيراته الطقوسية اكثر بكثير من اخلاقه او طقوسه في معتقداته .

دعنا ننظر الى بعض الافكار الاساسية التي ستقوم نظرتنا الجديدة باضافتها او باملائها الى نظام العقائد الجديد . ولدينا في المكان الاول وجهة نظر مختلفة تماما فيما يتعلق بغوامض الحياة وبتقدم المعرفة العلمية الجديد . لدينا في المكان الاول وجهة نظر مختلفة تماما فيما يتعلق بغوامض الحياة وبتقدم المعرفة العلمية ، نجد ان كثيرا من الظواهر التي كانت تبدو يوما ما غامضة تماما ، يمكن الان ان توصف او تشرح باسلوب منهدم من الناحية الفعلية او باسلوب طبيعي. ولا ينطبق هذا على الظواهر الطبيعية مثل قوس قزح والكسوف والخسوف ،والاوبئة والزلازل فحسب ، ولكنه ينطبق ايضا على الظواهر الطبيعية والبيولوجية مثل التناسل والجنس والوراثة والتطور والظواهر النفسية مثل سيطرة فكرة معينة على الجهاز العقلي ، وتقمص الارواح النجسة والجنون والالهام . وكما يقال فقد بدد ضوء العلم الساطع الغموض تاركا الحكم للعقل والمنطق وحدهما . ولكن هذا ليس صحيحا على الاطلاق . لقد ازاح العلم الستار الذي يحجب الرؤية عن خفايا ظواهر عديدة مما افاد الجنس البشري فائدة جمة . ولكنه يجابهنا بسر اساسي وعام في انحاء العالم : الاوهو سر الوجود بوجه عام ، ووجود العقل بوجه خاص . لماذا يوجد العالم ؟ ولماذا تكون المادة التي يتكون منها العالم على ما هي عليه ؟ ولماذا تتصف بنواحي ذهنية او ذاتية ، كما تتصف بنواحي مادية وموضوعية . نحن لا نعلم وكل ما نستطيع فعله هو الاعتراف بالحقائق . ومعنى هذا ان نسلم بالكون كما قالت مرجريت فولر . ورغم ان كارليل حذر الناس من مغبة عدم الاخذ بهذا القول ، الا ان الاخذ به ليس سهلا ميسورا اذ ان هناك مقاومة كثيرة تعترض هذا الرأي . وباديء كل شيء ، يظهر الكون هائل الاتساع ، وهائل التنوع بشكل يمنع عقولنا الانسانية الصغيرة من قبوله ككل وحدوي . والكثير من اجزائه ـ كما يبدو ـ لا يتناسب مع الفكر والشعور الانسانيين . وفي كثير من مظاهره يبدو الكون غريبا بل وعدائيا نحو الامل البشري ، والسعي الانساني . ولكن يجب ان نتعلم كيف نقبله ، وان نقبل وجوده ووجودنا على انه السر الاساسي الوحيد .

وطبقا لهذا ، فانه يجب ان يكون لاي دين منبثق جديد خلفية من الاجلال والمهابة لغوامض الوجود في نظامه العقائدي ، كما يجب ان يسعى لاذكاء جذوة التحدي في سائر معالجاته الخاصة التي تتناول مشكلة الوجود العامة .

وعلى الرغم من ان كل ما نستطيع فعله بالنسبة للكون في وجوده الكلي هو ان نكتشف مجاهل سره باعتبار انه يستحيل القاء الضوء على غموضه وتحليله الى عناصره الاولى المكونة له ، وان نتمثله تمثيلا انسانيا عن طريق الاحساس بالدهشة والعجب فقط ، مع القبول الحر له الا ان الجهد الانساني العقلي والخيالي يستطيع ان يلقي الضوء على تفاصيل ظواهره ، والعلاقات بين اجزائه العاملة . وينطبق هذا على الدين كماينطبق على العلم والفن . وفيها جميعا تتجلى ضرورة معالجتها معالجة اكلوجية اي باستقصاء العلاقة بينها وبين البيئة المحيطة بها .

ويمكن اعتبار الدين بطريقة مفيدة على انه تطبيق للاكلوجيا الروحية. والعلاقات التي يجب على الدين ان يحاول معالجتها هي العلاقات بين الانسانية وبين بقية الطبيعة الخارجية . والعلاقة بين نفس الانسان المفردة ببقية طبيعته الداخلية ، والعلاقة بين الرجال والنساء الافراد ببقية الرجال والنساء ومجتمعاتهم .

ويمكن لنظرتنا الانسانية الجديدة ان تلقي كثيرا من الضوء على جميع هذه الاشياء . وعلى ضوء هذه النظرة يمكن رؤية الكون على انه عملية وحدوية وتطويرية . والانسان جزء ونتاج هذه العملية ، ولكنه جزء يتميز جدا بخصائص يتفرد بها . وهو قادر على دفع هذه العملية والتأثير منها على الارض وربما في غير الارض . ولكنه لن يتمكن من التأثير في العملية بطريقة بناءة الا اذا فهم مجرياتها .

ولصحة النسبة وسلامة العلاقة التي يجب ان يهدف اليها الانسان جانبان . وأحد هذين الجانبين يتلخص في نسبة الوضع السليم الى نموذج متكامل ومنسجم . ويتلخص الاخر (وهذا هو التجديد الاساسي الذي اضافته النظرة الجديدة) في علاقة الاتجاه السليم بالعملية باسرها . ولهذا يجب ان يكون الهدف الديني للانسان هو تحقيق توازن روحي ديناميكي وليس استاتيكيا . ولذلك يجب ان يتعلم دينه المنبثق كيف يكون نظاما صريحا ، يصحح نفسه بنفسه كما يفعل نظام العلم .

وتنص سائر الاديان على احاطة بعض المناسبات في الحياة بالتقديس وخاصة احداث الميلاد والزواج والموت ، وتلك الاحداث التي تميز الانتقال من مرحلة في الحياة الى مرحلة اخرى مثل التدشين او الحصول على درجة . ويجب ان يستمر دينه المنبثق الجديد ان يفعل هذا ، وان كان يجب عليه ان يترجم هذه الشعائر بأسلوب له علاقته بالنظرة الجديدة ، وظروف حياته الجديدة .

واعادة صياغة المفاهيم والمعتقدات والطقوس الدينية التقليدية ، وترجمتها الى مصطلحات جديدة ، والى اطار جديد من الافكار تشكلان واجبا اساسيا على المذهب الانساني ان ينهض باعبائه .

والانسان يصنع مفاهيمه بنفسه . وهو يبنيها من مادة تجربته الخام ، المباشرة والمتراكمة ، بمعونة جهازه النفسي المشتمل على العقل والخيال .

وليس هذا صحيحا بالنسبة للمفاهيم الدينية فحسب ، بل بالنسبة للمفاهيم العلمية ايضا مثل الذرة . او الانتخاب الطبيعي الراهن ، او الاربعة عناصر ، او توارث الصفات المكتسبة في سالف الزمان .

ولكن في حين ان العلم يقوم دائما ، وطواعية واختيارا بتحسين مصطلحاته ، واعادة صياغة مفاهيمه ، بل تجميعها وتشكيل مفاهيم جديدة للغاية ، نرى ان الدين بوجه عام يقاوم اي تغيير من هذا القبيل .

وتستند المفاهيم الدينية جميعا مثل الله، والتجسد والروح ، والخلاص والخطيئة الاولى ، والعناية الالهية ، والكفارة الى اساس من تجارب الانسان في حقيقة الظواهر . وانه من الضروري الان تحليل هذا الاساس من الحقيقة الى اجزائه المكونة له ، وان نقوم بعد ذلك باعادة تجميع هذه العناصر ، جنبا الى جنب مع اية عوامل جديدة تظهر الى الوجود ، في مفاهيم اكثر اتفاقا مع الحقيقة والتصاقا بها ، واشد صلة بالظروف الراهنة .

وهكذا يبدو اذا سمح له ان يقوم بتبسيط المسألة اكثر من اللازم ـ ان الله رمز في التطور اللغوي يدل على ما اسماه ماتيو ارنولد « بالقوة الخارجية عن ذواتنا ... » او بتعبير اصح القوى المتنوعة التي نشعر انها اعظم من ذواتنا الضيقة المحدودة سواء كانت قوى الطبيعة الخارجية او القوى الكامنة في طبيعتنا الداخلية . وهي تترابط جميعا في مفهوم كائن مقدس شخصي او فوق الشخصي ، قادر بطريقة ما على التأثير في مجرى الاحداث او توجيهها او التدخل في شؤونها . هذه القوى موجودة حقا ، والذي فعلناه هو اننا قمنا في غير شرعية على الاطلاق باسقاط فكرة الله فيها . وبهذا شوهنا مدلولها الحقيقي وغيرنا مجرى التاريخ تغييرا كبيرا .

واذا تم لنا ادراك هذا ، فينبغي ان يكون في الامكان اعادة صياغة افكار مثل القانون الالهي ، او اطاعة ارادة الله ، او الاتحاد مع عقل الله ، من جديد في مصطلحات تطورية تتفق مع المعرفة القائمة .

ومرة ثانية ، فان الاخلاقيات المسيحية (التي يدين لها العالم بفضل عظيم) مبنية على مبدأ الخطيئة الاولى التي جاءت نتيجة سقوط

الانسان . وهي تسعى الى اعطاء تفسير واضح لظواهر عامة .وتكاد تكون عالمية الانتشار مثل احساسنا بالذنب ، وبحثنا عن الكفارة ، وضمائرنا المتحكمة فينا ، وشعورنا الشديد الصارم بماهو حق وما هو باطل . واضطهادنا نتيجة لذلك لاولئك الذين ينحرفون عما نعتبره الطريق القويم .

وكما يوضح البروفيسور وارنجتون في الفصل الذي كتبه ، مدعما اياه بثروة من المجادلات المؤيدة لوجهة نظره في كتابه الحديث الظهور الذي يبعث على الاعجاب « الحيوان الاخلاقي » فان علم النفس وعلم البيولوجيا التطوري يشيران فيما بينهما الان الى تفسير عقلي ومنسجم لهذه الحقائق .

وتقوم الحياة النفسية ـ الاجتماعية على نقل التجربة المتراكمة في صورة تقليد . ولا يستطيع هذا ـ كما يبين وارنجتون ـ ان يكون فعالا ما لم يكن الطفل البشري اعد اعدادا وراثيا حتى يكون على استعداد لقبول سلطة فوقه ، تماما كما نجد ان صغار الطيور مجهزه بجهاز يطبعها ويجعلها تقبل اي جسم متحرك في حدود احجام معينة على انه والد لها .

ويتضمن هذا الجهاز الاخلاقي الاول ادخال السلطة الخارجية وغرسها في الضمير البدائي للطفل . وهذه عملية يصاحبها اما الكبت التام لمشاعر السلطة التي تتمثل في الوالد الحبيب واما انطلاق هذه المشاعر التام . ونتيجة لهذا ، نجد ان صفة الاطلاق تتعلق باحساس الطفل بالصواب والخطأ ، الى جانب موقف يحمل في طياته التناقض بالنسبة للسلطة بوجه عام . وتصبح قيم الطفل الاخلاقية مثقلة بالاحساس بالذنب ، كما تصبح مشاعره نحو السلطة مفعمة بالتناقض.

يحدث هذا كله قبل ان يتقدم الطفل في العمر بدرجة كافية ليتحفز من افكاره عن طريق الممارسة والتجربة . وفي خلال تطوره اللاحق فيما بعد نجد انه سيقوم بتعديل وتصحيح مضمون ما قد قبله من افكار ، ومقدار سلطانها عليه . ولكنه سيحتفظ بوجه عام بجانب كبير من كليهما . ويجب الا يكون هدف الداعي للمذهب الانساني هو تدمير سلطة الضمير الداخلية ، بل مساعدة الفرد النامي على الفرار من اغلال نظام السلطة المفروضة عليه الى احضان نظام للسلطة قائم على الحرية والوعي . وسيتضمن هذا اعادة تشكيل كاملة لنواحي الدين الاخلاقية .

وربما تكون اعادة التشكيل ـ بل واعادة التقييم ـ فيما يختص بحياة الانسان الداخلية وما نسميه بالتطور الروحي نظرا لعدم توفر مصطلح افضل ، ذات ضرورة قصوى .

والخبرات الدينية مثل تجارب الاتصال بنوع من الحقيقة العلوية ، او الالهام المنبعث من خارج الشخصية او الاحساس بالقوة والمجد الذي يتجاوز الظاهر الملموس من الحياة ، او الاهتداء فجاة الى دين الحق او الجمال فوق العادي ، او القدسية التي لا سبيل الى وصفها او قدرة الصلاة او التعبد التائب على الشفاء ، او فوق كل هذا جميعا الاحساس العميق بالسلام الداخلي والطمانينة الداخلية رغم كل مظاهر الفوضى والعذاب ... كل هذه الامور جميعا لم يعد في الامكان تفسيرها بالاسلوب التقليدي عن طريق الاتصال باله شخصي او بمنطقة من الوجود فوق الطبيعة . ولكن لا يمكن مع ذلك انكارها او شرحها بمنتهى البساطة عن طريق المذهب العقلي المفرط في الامكان تفسيرها بالاسلوب التقليدي عن طريق الاتصال باله البشرية الغريب . وتفاعلها المدهش بالحقيقة الخارجية ، ونتيجة الصراع الداخلي الاكثر غرابة والذي غالبا ما يكون لا شعوريا بين الاجزاء المكونة لهذه العقول البشرية . ولكن هذا النتاج حقيقي (١) رغم كل هذا ويمكن ان يكون ذا اهمية عظيمة للفرد الذي يخبره ويكابده . واكثر من هذا انه ، بحاجة كما تعلم الكنائس جيدا ، الى الفحص والامتحان والى الخضوع الى النظام .

والخبرات الدينية غالبا ما تكون ، او تبدو ان تكون ، غير قابلة للوصف بالمعنى الحرفي للكلمة مما يجعل نقاشها امرا عسيرا للغاية ، ولكن مدلولها مسألة عالية وعميقة معا (كما انا مدرك في كل تواضع). ولكن هذه الخبرات تحتاج بكل تأكيد الى اعادة فحصها واعادة تقديرها والحكم عليها اذا اردنا لقيمتها الكامنة العظيمة ان تتحقق .

واكثر من هذا انه ينبغي على الدين القائم على التجربة والمعاناة ان يمد يده لمعونة علم النفس في دراسة جديدة ومغايرة تماما لما سبقتها من دراسات لموارد الانسان وطاقاته الروحية الفعلية والكامنة . وسيتعين على مثل هذه الدراسة ان تبدأ بطبيعة الحال الافتراضات السلفية بان الانسان نوع جديد من الكائنات الحية يتكون من عقول واجسام افراد في تفاعلها مع نظام للافكار والعقائد مستمر وفوق الافراد، يتمثل مصيرها في تحقيق قسط اوفر واوفى من امكانياته من اجل استكمال لحياته اكبر ، خلال المزيد من التطور مع الافتراض بان الدين عضو في الانسان يعني اساسا بما يحسه ويعتقد انه قدسي في ذلك المصير .

ولكن نظرتنا الجديدة تضيء وجودنا ومصيرنا بطريقة جديدة ، وتحتم اسلوبا جديدا في معالجة مشاكل الوجود والمصير . وعلى ضوء هذه النظرة نرى لتونا انه يجب ان تكون اعادة تقدير التجربة الدينية وتقييمها من جديد جزءا من شيء اكبر بكثير ـ وهو فحص تام واستقصاء كامل عن عالم الانسان الداخلي ، ومشروع عظيم (لاكتشاف العقل) يمكن له وينبغي ان يتنافس بل يفوق اكتشاف الفضاء اهتماما واهمية وسيفتح هذا منطقة جديدة من الوجود يستعمرها الانسان ، ويحتلها احتلالا مثمرا ، منطقة من الحقائق الذهنية قائمة على منطقة الحقائق المادية وان كانت تتجاوزها ، عالما من الارضاءات التي تتجاوز الارضاءات الجسدية والتي يشعر الانسان بطريقة ما انها اكثر اطلاقا واكثر كمالا . والعاديون من الرجال والنساء يشاهدون بين الفينة والاخرى لمحات من هذا العالم عندما يتيمون بالحب وعندما تستبد بهم تجارب النشوة والجمال والرهبة العارمة . ويتوفر لدينا من حين الى اخر بيانات المكتشفين الذهنيين والشعراء والمفكرين والعلماء والمتصوفين الذين يوغلون في النفاذ الى دخيلته .ولنذكر في هذا الصدد القديسة تيريزا ، او بليك المسافر الذهني ، او ورد زورث الذي سبق فرويد بان كشف النقاب فينا عن « الغرائز العالية التي تهتز امامها فرائص طبيعتنا الابلة الى زوال كما لو كانت لصا مذنبا فوجيء متلبسا بارتكاب جريمته » .

ولم تتضافر اية جهود حتى الان من اجل الكشف عنها او رسمها رسما وافيا . وليست لدينا حتى الان المصطلحات المناسبة لمناقشتها . وعند وصف عملياتها ونتائجها ، تضطر اللغة العادية لاستخدام مصطلحات مثل النشوة ، والالهام ، وساحرة ، ونعوت اخرى مثل سماوية ، فاتنة وقدسية في حين ان المحاولات الاولى للوصول الى مصطلحات علمية مثل الكبت ، والتسامي ، والهي او النوازع ، والانا العليا SUPER EGO لا تعالج سوى حواشيه .

ومن وجهة النظر الدينية على وجه التحديد ، فقد يعرف اتجاه التطور المرغوب فيه على انه اضفاء القداسة على الوجود . ولكن حتى يصل هذا الى مدلول فعال ، يجب ان نصوغ تعريفا جديدا للقداسة متحررا من سائر الافكار المقترنة بكائنات خارجية فوق الطبيعة .

والدين في يومنا الراهن مسجون في اطار من الافكار التي تتضمن الايمان بوجود اله ، ومضطر الى العمل في لا حقائق عالم ثنائي . وفي اطار المذهب الانساني الوحدوي يكتسب الدين نظرة جديدة وحرية جديدة . وبمعونة نظرتنا الجديدة ، تتوفر للدين الفرصة في الهرب من المازق المنطوي على الايمان باله ومن لعب دوره المناسب في العالم الحقيقي للوجود الوحدوي .

(١) الى جانب كتاب وليم جيمس المشهور ، هناك اوصاف ودراسات عديدة قيمة في تنوع التجربة الدينية وقد اوردت عددا منها وناقشتها في « دين بلا ثورة » .

ويعود بي هذا الى حيث بدأت ـ الى نظرتنا الجديدة والثورية الى الحقيقة . وهي نظره تنبؤية مثلها في ذلك مثل سائر الرؤى الحقة . وهذه النظرة التي تمكننا من فهم وضع الحياة الراهن في ضوء ماضيه غير العادي لا تساعدنا على استجلاء مستقبل لا يقل غرابة عن الماضي فحسب بل تقوم بادخال الفرض المرسوم في مجرى هذا المستقبل .

وفي ضوء هذه النظرة ، ينظر الى استكمال الحياة وخصوبتها على انهما هدف الوجود العارم الذي يمكن التوصل اليه عن طريق تحقيق الامكانيات الكامنة للحياة . وهكذا نرى ان تطوير قدرات الانسان الهائلة الممكنة التحقيق يوفر الباعث الاساسي للعمل الجماعي ـ وهو الباعث الوحيد الذي يمكن لكل الناس وكل الامم ان تتفق عليه ، كما انه الاساس الوحيد لتخطي الايديولوجيات المتناحنة وتجاوزها. وتحمل هذه النظرة امكان التئام الصدع بين الدين والحلم والفن عن طريق حشد قدرات الانسان الدينية والعلمية والفنية في مشروع مشترك جديد ، وهي تحدد جدول اعمال يناقش فيه العالم ذلك المشروع ، كما تقترح الوسائل العلمية التي تستخدم في ادارته .

وهذه النظرة تبين الحاجة الماسة الى المسح والبحث في شتى ميادين التطور الانساني . ويشمل هذا تقدم ما يمكن ان اسميه بالتكنولوجيا النفسية ـ الاجتماعية بما فيها انتاج الادوات والالات الايدولوجية مثل المفاهيم والمعتقدات التي تحفظ التجربة بطريقة افضل.

ونحن بحاجة ايضا الى تطوير اكلوجيا جديدة ، اكلوجيا العملية الانسانية والتطورية . ويعني هذا استحداث نمط جديد لعلاقتنا بعضنا بعضا ، وبقية بيئتنا بما فيها البيئة الذهنية التي نقوم بخلقها والسكن فيها .

ويجب على الايكولوجيا النفسية ـ الاجتماعية ان تهدف الى توازن سليم بين القيم المختلفة ، وبين الاستمرار والتغير ، وبين العملية التطورية التي نضطلع بمسؤولية توجيهها وبين الموارد التي يجب علينا ان نعمل بمقتضاها . وتنقسم تلك الموارد الى نوعين : نوع مادي وكمي يوفر سبيل الحياة والمنفعة ، ونوع نفسي وكيفي يوفر الاستمتاع والاستكمال ـ ويتمثل النوع الاول في اشياء مثل الطعام والطاقة والمناجم والمنشئات الصناعية من ناحية كما يتمثل النوع الاخر في الانفراد وجمال المناظر الطبيعية والبحر والمغامرة الجبلية ، والاحساس بالعجب والاهتمام بالحياة العنيفة العارمة من ناحية اخرى . ويجب على الايكولوجيا الانسانية المرسومة ان توازن بين هذين النوعين من الموارد وان توفق بينهما كلما امكن ذلك .

ما هو مكان الفرد في كل هذا ؟ يبدو عند النظرة الاولى ان الانسان الفرد ضئيل وزائل وغير ذي بال ، ولا نصيب له من الاهمية في خطة الانسانية الهائلة ككل . ولكن الفرد يتمتع في المذهب الانساني التطوري ، على خلاف بعض الايدولوجيات الاخرى ، بمكانة عالية . وبغض النظر عن الوظيفة العملية التي يقوم بادائها في المجتمع وفي خطته الجماعية فهو يستطيع ان يستكمل المصير البشري عن طريق تحقيق اكبر لامكانياته الشخصية . والشخصية القوية الخصبة هي الاضافة الوحيدة والمدهشة التي يضيفها الفرد الى العملية النفسية ـ الاجتماعية .

وقد اقترب سانتيانا قربا شديدا من فكرة المذهب الانساني الرئيسية في كلمات تتصف بالحجى وتتسم بالسناء حين قال : « هناك عالم واحد فقط هو العالم الطبيعي . وهناك حقيقة واحدة بصدده . ولكن في هذا العالم حياة روحية لا تتطلع الى عالم اخر ، ولكنها تتطلع الى الجمال والكمال اللذين يوحى بهما هذا العالم ويقترب منهما ويفوته تحقيقهما . »

واذا كنا نأمل في تحقيق الجمال والكمال الكامنين بطريقة اكثر اكتمالا ، فسيتعين علينا ان نستعيد من كل الموارد الموجودة ـ لا موارد العالم الخارجي فحسب بل تلك الموارد الداخلية في طبيعتنا ـ موارد العجب والذكاء والحرية الخلاقة والحب والخيال والايمان . والعقيدة الاساسية للمذهب الانساني هي ان الوجود يمكن اصلاحه ، وانه يمكن بشكل متزايد تحقيق امكانيات هائلة لم يسبر غورها حتى الان ، وان استكمالا اكبر يمكن ان يحل محل الخيبة والاحباط . وهذه العقيدة قائمة بصورة راسخة على المعرفة . ويمكن ان تصبح بدورها الاساس الراسخ للعمل .

لقد حان الوقت لانهاء هذه المقدمة باختصار . ان زيادة المعرفة تفضي الى نظم فكرية جديدة ـ الى تنظيمات جديدة في الفكر والشعور والمعتقدات . والنظم الفكرية بهذا المعنى توفر الاطار الذي يسند المجتمعات والثقافات الانسانية ، وتحدد الى مدى كبير سياساتها ومجراها . وخلال التاريخ الانساني (التطور النفسي ـ الاجتماعي) نجد ان كل تبني نوع جديد من النظم الفكرية قد انشأ نوعا جديدا من المجتمعات ، وخطوة جديدة في التطور النفسي ـ الاجتماعي . وزيادة المعرفة في هذه اللحظة تدفعنا نحو نوع جديد من الانظمة الفكرية يغاير ما سبقه من النظم . وقد اسميت هذا النوع بالمذهب الانساني التطوري . وهذا المركز دقيق لاننا نحتاج الى توجيه هذا النوع من النظم الفكرية لمنع التطور النفسي ـ الاجتماعي من ان يتسبب في هزيمة نفسه بنفسه ، او حتى ان يدمر نفسه بنفسه .

والجهد المباشر المطلوب هو مهد فكري وخيالي ـ ومفاده فهم هذا الكشف الجديد الناجم عن نمو المعارف . والمذهب الانساني انتشاري . ويجب ان نعلم ما يعنيه ، ثم نقوم بالترويج لافكار المذهب الانساني ، واخيرا ننفثها كلما سنحت لنا الفرصة في الشؤون العملية حتى تكون بمثابة اطار مرشد للسياحة والعمل .

القاهرة

ترجمة : رمسيس عوض

في المكتبات

انا وسارتر والحياة

بقلم سيمون دوبوفوار

ترجمة عايدة مطرجي ادريس

في هذا الكتاب الرائع تروي لنا الكاتبة الوجودية الكبيرة قصتها مع الرجل الذي كان شريك حياتها ، من غير ان يكون زوجها ، جان بول سارتر . وهي من خلال ذلك تقص تلك المغامرة التي ادت الى انتصارها : كيف اصبحت كاتبة الى جانبه . وكيف كانا وما يزالان يواجهان الحياة .

قصة رائعة ، عميقة ، نابضة بالحياة

منشورات دار الاداب ـ بيروت

الثمن اربع ليرات لبنانية او ما يعادلها